من مظاهر سياسة الفرنسة ومحاربة اللغة العربية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي

أ . سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2 .

ملخص:

إن البحث في الجرائم الفرنسية تجاه الحضارة العربية الإسلامية في الجزائر، ومحاولة الفرنسة، أو إعادة بعث الرومنة، و التي لا تزال الجزائر تعاني من ويلاتها، هو بحث جدير بالاهتمام، وهذا المقال يبحث في مظاهر سياسة الفرنسة في الجزائر، و الاستراتيجية المتبعة للقضاء على اللغة العربية طيلة فترة الاحتلال، الهدف منه رصد أهم المظاهر في سياسة الفرنسة، فهو مجرد محاولة متواضعة لمعالجة موضوع كبير، و استدعائه للبحث مرة أخرى، و لعل قارئه يتعمق فيه بأكثر مما فعلت وذلك بتجزئة هذه العناصر وجعلها مواضيع لمذكرات التخرج .

Résumé :

La recherche sur les crimes français perpétrés envers la civilisation arabo-musulmane en Algérie, la tentative de francisation ou le renouveau de la latinisation dont les séquelles persistent jusqu'à aujourd'hui ;est une recherche digne d'intérêt. Cet article explore la stratégie suivie pour extirper la langue arabe ainsi que les aspects de la francisation en Algérie tout au long de la période de la colonisation. Le but étant une modeste tentative d'en saisir les grands axes pour susciter des orientations de recherche plus approfondies et plus détaillées dans le cadre des mémoires de fin d'études.

من المفاهيم الشاملة الجامعة التي وقفت عليها لمفهوم الفرنسة ما ذكره الأستاذ "**تركي رابح**" كون الفرنسة: " هي إحلال اللغة الفرنسية و ثقافتها محل اللغة العربية و ثقافتها في الجزائر، حتى ينسى الجزائريون بمرور الزمن لغتهم و ثقافتهم القومية، و يستعيضون عنها باللغة و الثقافة الفرنسية. كما حصل في بعض البلدان... فنسيت هذه الأخيرة لغتها وثقافتها، و استبدلتهما بلغة و ثقافة المستعمر...مثل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، و معظم شعوب أمريكا اللاتينية، و بعض شعوب القارة الإفريقية " [1] .

فالفرنسة إذن حسب المفهوم الإجرائي المعتمد هي إحلال اللّغة الفرنسية محل اللّغة العربية في جميع مجالات الحياة حتى يصبح المجتمع الجزائري فرنسي اللّسان و الثقافة، و بذلك تصبح اللغة الفرنسية لغة النخبة المثقفة أو المتعلمة المدمجة، كما أنها تكون لغة الإدارة، و لغة الفئة الحاكمة و لا مكان للعربية في أي مجال من هذه المجالات. و لقد بقي هذا التوجه سائدا مسيطرا على عقلية الإدارة الفرنسية إلى غاية آخر مرحلة من وجودها في الجزائر، حتى أن مسألة اللغة قد أثارت جدلا كبيرا في اتفاقيات إيفيان، فقد ذكر **سعد دحلب** [2] " أنه حتى اللغة الرسمية في الجزائر قد أثارت جدلا كبيرا جدا، كنا نعتقد ألا جدل في اللغة العربية لغة البلاد، و لكن الفرنسيين أرادوا أن تكون الفرنسية هي اللغة الرسمية، أو على الأقل اللغتان كلتاهما معا (الفرنسية و العربية) " [3] .

ـ مفهوم التخطيط و علاقته بسياسة الفرنسة :

يعني التخطيط الدراسة و البرمجة و توظيف الإمكانيات، و هو الإعداد المسبق للسياسات والطرق و الاستراتيجيات و الإمكانيات التي توجه العمل نحو أهداف معينة [4].

وبهذا يمكن القول أن التخطيط من حيث هو علم يحظى بمكانة متميزة، ومن حيث هو فن وتطبيق لا يستغني عنه مجال من مجالات الحياة بما في ذلك المجال اللغوي أثناء الاحتلال الفرنسي.

و الدارس للسياسات اللسانية اليوم يجد أنّ التخطيط اقترن باللغة ، و صار ما يعرف بالتخطيط اللغوي الذي يعبر عن حقل علمي تخصصي تطبيقي، فهو أحد فروع علم اللغة الاجتماعي .و قد عرف تاريخ العديد من اللغات جوانب كثيرة من التخطيط اللغوي التطبيقي لاسيما في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، حيث قامت فرنسا بجوانب عملية تطبيقية على اللغة الفرنسية و اللغة العربية على حد سواء بالإحلال و الإقصاء، و لنبين ذلك يمكن الوقوف على تعريف التخطيط اللغوي لبعض المعاصرين : " فهو محاولات مؤسسة منظمة و مقصودة تهدف إلى التأثير في الوضع اللغوي، أو اللغوي الاجتماعي للغة ما "[5].

و بعد تتبع هذا المفهوم وجدت أنه يعمل في مجالين متكاملين[6] :

أ ـ بنية اللغة : و يضم كل الجهود العلمية الرامية إلى تطوير مختلف جوانب اللغة ذاتها، و هذا ما قامت به فرنسا في جانب تعليم الفرنسيين الكولون و الجنود و كذلك بعض الجزائريين للغة العربية، و ركزت على الدارجة، و أوجدت قواميس و كتب للعربية الدارجة arabe barbaresque. و كذلك كتب نحو العربية الدارجة (grammaire de l' arab vulguair)مثل كتاب أربنيوسErpenius و دوساسي De Sacy و كذلك نحو العربية الدارجة grammaire de l arab vulguair لكوسان دو بيرسوفال [7] و غيرهم كما سأبين لاحقا، فقد تجاهلت الدراسات الفرنسية اللغة العربية الفصيحة، و اهتمت بلغة التواصل، إذ كان الهدف هو التغلغل في المجتمع الجزائري للتعرف على عقليته و تفكيره قصد إخضاعه و الوصول إلى تحقيق المصالح الشخصية و العامة للمستوطنين الأوروبيين .

ب ـ مكانة اللغة (status): و هي اجتماعية (بأن تُتّخذ اللغة أداة للتعبير من مستويات التخاطب و التواصل و مجالاته)، و قد تفرض بقرار سياسي أو قانون رسمي (بأن تكون هذه اللغة هي لغة المجتمع) و هذا ما سأبينه في هذه الدراسة، أي كيفية تعامل فرنسا مع اللغتين العربية و الفرنسية بعد احتلالها الجزائر . حيث أقصت الأولى(اللغة العربية)، و أحلت مكانها اللغة الفرنسية، و ذلك باتباع مخطط واضح المعالم، فاستهدف التخطيط ضمان الوصول إلى الغايات المجتمعية المرغوبة، كما وفرت الوسائل المناسبة، و رصدت ميزانية و أعدت موارد بشرية، كما أقامت مؤسسات تقوم بترقية اللغة الفرنسية بالجزائر و نشرها على أوسع نطاق، و عملت هذه المؤسسات على جرد الحاجات و تحديد الأولويات .

و أثناء ذلك كان تكاثف المجهود الجماعي المتواصل لمحاربة العربية و رصد ميزانية و موارد بشرية، لإحلال الفرنسية في التعليم و الإدارة و الحياة العامة مع إسناد مهمة متابعة تنفيذ الخطة الموضوعة للجيش المحتل إلى غاية 1874.

من هذا المنطلق، هل يمكن القول أن فرنسا وضعت مخططات و استراتيجيات واضحة المعالم لحالة اللغة العربية طيلة فترة الاحتلال؟

إن المتتبع للجوانب السياسية و الإدارية التي رافقت مسيرة محاربة العربية والتمكين للفرنسية يتبين له أن فرنسا كانت تضع كل ثقلها العسكري و المدني لمحاربة الهوية الوطنية للجزائريين بكل أبعادها، و يمكن أن نجمل هذا المخطط في كون الاستعمار وضع خطة لمحاربة اللغة العربية بتشديد الحصار عليها، و منع تعليمها وتعلّمها، و اعتبارها لغة أجنبية يحرم التعامل بها قانونا، و فرض اللغة الفرنسية بدلها، و إحلالها في محلها في جميع المجالات و غلق المدارس و تهديدها و تشريد المتعلمين وسجن المعلمين، و منع بناء المدارس العربية، وهدم المساجد، و تدجين الزوايا والقضاء ..كما اتبعت

سياسة التجهيل بصفة عامة .. إن هذه الأعمال كلها لم تكن وليدة وضع عام أو أعمال ناتجة عن خيارات فردية كلونيالية معزولة، بل كانت مدعمة بدراسات، و تحميها مؤسسات، و يوجهها خبراء و أساتذة في المرحلتين العسكرية و المدنية. و فيما يأتي عرض لأهم مظاهر هذه السياسة.

1 ـ القضاء على الهيئة الدينية:

من عوامل تدهور اللغة العربية في الجزائر القضاء على الهيئة الدينية بمفهومها الواسع، فقد وجد الفرنسيون ساعة الاحتلال هيئة دينية قائمة، و كانت تتألف من العلماء الذين يشملون القضاة و الأئمة و المفتيين و المدرسين...وكان على رأس هؤلاء "**شيخ الإسلام**" الذي كان مقدما عن جميع العلماء... هذا الوضع كان يعرفه الفرنسيون جيدا قبل الاحتلال من خلال المخططات التي كانت تقدم من قبل الجواسيس و السفراء الذين كانوا في الجزائر، و قد عنوه كما عناه الداي عندما وقّعوا اتفاق 1830 م، الذي نص على حرية العقيدة و على احترام الدين الإسلامي و المساجد...الخ و لكن ذلك الاحترام لم يدم طويلا و كان الاتفاق المذكور كما قال عنه كلوز يل و هو يرد على حمدان خوجة، مجرد "**لعبة حرب**" في نظرهم و هكذا بقي الإسلام تحت النفوذ الفرنسي مضطهدا أكثر من قرن كما قال **ماسينون** و يمكن أن نمثل لذلك بما فعلته السلطات الفرنسية في أوائل الاحتلال حيث نفت شيخ الإسلام "**محمد بن العنابي**" و ألغت هذا المنصب سنة 1830، و ألغي منصب شيخ الإسلام من قسنطينة سنة 1837 بعد احتلالها .[8]

لقد عملت سلطات الاحتلال على إظهار العلماء والمفتين بصورة مشينة أمام العوام لاسيما بعدما رأت أنهم سبب عدم تقدم الاحتلال وبسطه على كافة تراب الجزائر، ولهذا قدمت هؤلاء العلماء بصورة غير حقيقية " فالعالم المصلح المجاهد الذي يوقظ النيام، ويدعو للإيمان والعمل والعلم والإصلاح، وتحرير العقول من الخرافات والأوهام، وترك عبادة القبور والأشجار، والابتعاد عن الدجالين

والمشعوذين، وترك استشارة الكهان والدراويش والسحرة ... كل من يفعل ذلك يعتبر كافرا ملحدا يريد إزعاجهم وإقلاقهم وإفساد حياتهم " [9] . لا شك أن خلو البلاد من المعلمين هو قضاء على الدين و اللغة .

2 . تهجير العلماء و المعلمين المدافعين عن اللغة العربية و الرافضين لسياسة الفرنسة :

من العوامل الأساسية التي ساهمت في إضعاف مستوى اللغة العربية هجرة العلماء من الجزائر و المدرسيين و الطلبة في المشرق و المغرب، لقد خرجت أعداد كبيرة من الجزائريين متجهة إلى البلدان المجاورة [10] و قد نفي الكثير من أعيان الجزائر مثل المفتي **ابن العنابي** و المفتي **ابن الكبابطي** و **قدور بن رويلة** و**عبد العزيز الحداد** و **محمد** و **علي السحنوني** و غيرهم كثير.

وكان سبب هذه الهجرة عدة عوامل (الدينية والاقتصادية والسياسية) مثل مصادرة الأملاك و الأوقاف و هدم المساجد و الزوايا وتدجين العلماء و القوانين الجائرة و تغيير الحالة المدنية و العقوبات بعد التوارث الشعبية الرافضة للاحتلال، وانتشار المجاعات بسبب الجفاف (1836 ـ 1847 ـ 1850 ـ 1867 ـ 1868 ...) .

ويمكن أن نمثل فقط لهذا العامل، فتفيد الإحصاءات الفرنسية أنه كان في دمشق وحدها سنة 1883 حوالي 4000 جزائري، و قدر الأمير عمر عدد المهاجرين بـ 17.500 في ولاية دمشق وحدها و يمكن أن نبحث بعد ذلك في بلدان أخرى (المغرب- تونس- مصر- ليبيا- اسطنبول- الحجاز...) " لقد استفحلت ظاهرة الهجرة إلى المشرق ثم إلى فرنسا . " [11]

ويمكن اعتبار أن هجرة الجزائريين عامة والعلماء بصفة خاصة، كانت بعد الاحتلال مباشرة، فقد قتل العديد من العلماء الرافضين للاحتلال، وبقي الكثير منهم مما اضطر الباقي إلى الهجرة " ويمكننا أن نعتبر سنة 1832 كبداية للهجرة

الجزائرية نحو المشرق العربي وغيره، ذلك لأنه في بداية السنة الأخيرة أضحى أمر اضطهاد الفرنسيين للجزائريين حقيقة ساطعة، وبعد تعيين روفيقو كحاكم عسكري عام للجزائر تجلت واضحة النوايا السيئة للمستعمرين الفرنسيين وما كانوا يكنونه من حقد وضغينة للجزائريين، إذ أثقل روفيقو كاهل الأهالي بالضرائب وقمع بيد من حديد كل التمردات " [12]، والحقيقة أن الدمار والقتل والتشريد عم كل ربوع الوطن " فبينما كان روفيقو يزرع الموت والدمار في الوسط الجزائري كان الجنرال الفرنسي بوايي Boyer يرتكب في وهران أرذل الجرائم، وأبشع الفظائع، وفي الوقت نفسه كان المملوك يوسف التونسي والنقيب الفرنسي دارماندي D' Armandy يتحكمان في مدينة عنابة بيد من حديد ... " [13]، ويذكر عمار هلال حيث يتحدث عن الهجرة إلى المشرق العربي وغيره، فضائع المستعمر التي تسببت في هذا الواقع، ثم عقب على ذلك بقوله : ليست نيتي في معالجة ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم وفظائع في الجزائر في بداية احتلالهم لها، بل أريد أن أشير إشارة بسيطة إلى المظالم الكبيرة التي مارسوها في الجزائر، وإلى التعسف والاضطهاد اللذين سلطهما الفرنسيون على الجزائريين منذ أن وطأت أقدامهم أرض الوطن، والتي دفعت الجزائريين إلى ترك ديارهم وأهلهم وذويهم بحثا عن ملجأ آمن. و الذي يهمنا في هذا المقال هو أن هذه الهجرة ساهمت في ضعف اللغة العربية في مناطق متعددة من اٌرض الـجزائر"حيث تسببت الإدارة الاستعـمارية في بعثرة أعيان الجزائر و أدت إلى هجرة و تهـجير العديد من العلماء و الأغنياء، حتى فقدت مدينة الجزائر وحدها حوالي الثلثين من سكانها غداة الاحتلال" [14].

ويمكن الرجوع إلى العديد من التقارير التي بينت ظروف الهجرة ومن هاجر في فترات الاحتلال، من ذلك تقرير مارسي (Marçais) [15]، والتقرير الإداري الفرنسي عن بلدية برج بوعريريج غير المختلطة، والذي يحتوي على 35 صفحة ويتحدث عن هجرة 1910 إلى بلاد المشرق [16].

3 . واقع واتجاهات تعليم العربية بمجيء الاحتلال :

اعتبر الفرنسيون اللغة العربية لغة أجنبية والفرنسية هي اللغة الرسمية، وكان ذلك موقفا واضحا من الدين الإسلامي أيضا لأن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة التي كتب بها تراث الدولة الإسلامية، ومن جهة أخرى كان موقفا سياسيا واضحا أيضا، لأن العربية كانت هي لغة البلاد الإدارية والقضائية والتعليمية . [17]، لا يخفى علينا أن التركية لم تكن إلا في الجهاز المركزي، بينما إدارة الأقاليم و الأوطان و الجماعات و المدارس و المحاكم كانت كلها باللغة العربية .

ولكن هذا لا يعني استغناء الفرنسيين عن اللغة العربية، لقد فهموا أن حاجاتهم الإدارية والاجتماعية لا يمكن أن تنجز إلا باستعمال هذه اللغة، وقاموا من أجل ذلك بمحاولتين : الأولى هي إهمال تدريس العربية في المدارس القديمة، وذلك بقطع مصادر الوقف عنها، والثانية هي الاكتفاء بتدريس العربية الدارجة لضباط الجيش والراغبين في العمل الإداري من الفرنسيين، وقد تركوا المسلمين يحفظون القرآن وحده في الكتاتيب بدون دراسة للعلوم المساعدة على فهمه وتفسيره، ومن ثمة بقي القرآن في الصدور دون الكتب ودون تطبيق تعاليمه على الحياة العامة، وكادت تختفي العلوم العربية (النحو والصرف والبلاغة والإنشاء والعروض ...) لولا وجود الزوايا القليلة التي تأثرت هي أيضا بالوضع العام (الاستيلاء على الأوقاف والحروب، والغلق) ولكنها مع ذلك واصلت تعليم العلوم المذكورة بطريقة تقليدية .

أما تدريس العربية الدارجة فقد تولاه الفرنسيون أنفسهم، وبعض المشارقة الذين رافقوا جيش الحملة مثل جوني فرعون (وهو سوري مصري)، ولويس برينييه، وقد شاركه في ذلك شيربونو في قسنطينة، وماشويل في وهران، وصدرت

عن هؤلاء مجموعة من الكتب التعليمية بالعربية الدارجة والفرنسية، وهي كتب تقرأ من اليسار إلى اليمين [18].

وهل يعني هذا أن الفرنسيين لم يدرسوا اللغة العربية الفصحى ؟ الواقع أن بعضهم قد فعل ومنهم : هوداس وشيربونو ودي سلان وبرينييه وكور، وقد استعانوا بمجموعة من الجزائريين نذكر منهم محمد بن شنب والحفناوي بن الشيخ وعلي بن سماية ومحمود كحول (ابن دالي) وأبا يعلى الزواوي [19].

وعاشت العربية الفصحى أيضا في المدارس الرسمية الثلاث التي بدأت تعمل سنة 1850، ومرت بمراحل من حيث البرمجة: مرحلة التعريب الكامل، ومرحلة الفرنسة الجزئية (1876)، ثم مرحلة ازدواجية البرنامج (العربي والفرنسي) بعد وضعها تحت إشراف مستشرقين فرنسيين منذ التسعينات من القرن الماضي، وكانت الدراسة بالفرنسية في المواد الفرنسية، كما أن الإدارة وطرق التعليم كانت أيضا فرنسية، ولذلك كانت اللغة العربية غريبة في المدارس الرسمية ـ في المرحلتين الأخيرتين ـ فهي تدرس كلغة أجنبية وكانت وسيلة تعليمها هي اللغة الفرنسية طبعا، وكذلك حال العربية في مدرسة ترشيح المعلمين أو في الثانويات الفرنسية [20].

ومنذ التسعينات انطلقت الدراسات الاستشراقية للهجات العربية في الجزائر، ويعترف رينيه باسيه الذي كان مديرا لمدرسة الآداب بالجزائر سنوات طويلة، أن هذا الاهتمام بدأ حوالي 1890، ونتيجة لذلك أخذ كل مستشرق يدرس لهجة أو أكثر في المدن والأرياف، فكان يذهب لزيارة المكان ويتصل بأهله وربما يستعين بالتلاميذ الجزائريين في الناحية، ويأخذ في جمع المادة والمقارنة ثم يكتب دراسة أو كتابا لنشره مسلسلا في المجلات ثم في المطابع، وهذا لا يعني أن دراسة اللهجات العربية لم تبدأ إلا سنة 1890، ولكنه يعني أن الخطة قد وضعت عندئذ لتطوير الدراسات وتوسيعها للوصول إلى غرض اجتماعي وسياسي وهو حصر اللهجات ومعرفة الأصول اللغوية والعرقية للسكان ومدى تأثير لهجة ما على ما جاورها،

وكيف تنقلت القبائل عبر العصور واستوطنت جهات عديدة، رغم أنها قد تكون من أصل واحد .

وفي هذا النطاق صدرت دراسات عن اللهجات الآتية : دراسة عن أشراف سيق ووهران، وأولاد إبراهيم بسعيدة وتلمسان والجزائر وقسنطينة، ثم لهجة طنجة، ولهجة الحسنية بموريطانيا، ولهجة الجبالة .. وأنت لا تكاد تفتح كتابا أو مجلة عندئذ إلا ستجد فيه دراسة عن لهجة [21].

5. سياسة الفرنسة أو التعليم المختلط قبل الإقصاء [22] :

لقد كانت سياسة الفرنسة الهادفة للقضاء على اللغة العربية تحاول فرض رؤية أخرى و تفكير مغاير تماما لعروبة الجزائر، فالثقافة الفرنسية في الفترة الاستعمارية كانت تسعى لتحقيق مشروع فرنسة الجزائر واستئصال مجتمعنا من مقوماته الأساسية،و ذلك بعد"اطلاع الشباب (الجزائريين) على حضارة المستعمر و تقاليده و كل معارفه" كانت فرنسا تعتمد اعتمادا كبيرا على مؤسسة المكاتب العربية لتطبيق سياسة الفرنسة،فهناك من الضباط من كان ينادي بشعار:**"تنوير عقول الجزائريين"** و لكن ليس بمعنى التنوير كما يفهم - بل الهدف ترسيخ و تعميق التفكير الاستعماري في أذهان المجتمع الجزائري . لقد جاء في بعض التقارير العسكرية ما يلي : "إنّ الحقيقة الأخلاقية تستهدف العقول لتنويرها،أماّ الحقيقة السياسية فهي الوسيلة الفعالة للحكومة، و ينبغي أن تسيطر الحقيقة الثانية على الأولى.." [23] فكانت الغاية تبرر الوسيلة و لهذا صرّح **الدوق دومال** قائلا: "إنّ فتح مدرسة في أوساط الأهالي لا تقل أهمية عن فيلق من الفيالق العسكرية لإخضاع البلاد" كما أعلن"**الدوق دي ريفيقو**" قائلا:" إنّ المعجزة الحقيقية التي يمكن صناعتها تكون في إحلال اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل اللغة العربية" [24]

لقد عملت السياسة الفرنسية على فتح المدارس الفرنسية لا لغرض تعليم المواطنين و لكن لإخضاعهم و للقضاء على اللغة الغربية في الجزائر.

لقد ظهر التعليم المختلط و كان مشروع تعليم اللغة الفرنسية إلى العرب يستهدف الأطفال والرجال فالمدرسة تكون متخصصة للأطفال في حين أنّ الحصص المسائية تكون للراشدين من الشواش و الموظفين العرب و الصبايحية.

كان أحد الآباء اليسوعيين من "بن عكنون " قد أشار بالنسبة للأوروبيين إلى أنّالفعل الضروري لتعليم اللغة العربية كان يسير دوما نحو التلاشي،لأنه يبدو انه لا يمكن الاستفادة من تعلمها أبداً، و هو دليل على طمس هذه اللغة و تعميم اللغة الفرنسية [25].

6 . الاهتمام باللهجات على حساب اللغة العربية :

ومن منطلقات سياسة الفرنسة أيضا الاهتمام باللهجات المحلية واللسان العامي على حساب تعلم اللغة العربية الفصحى واستعمالها، فأحدث رجال الإدارة الفرنسية بالجزائر إجازات باللهجات المغربية، وشهادات باللسان العامي الدارج (العربية الدارجة)، واعتبروها مماثلة أو بديلة عن اللغة العربية الفصحى [26].

وحتى تقضي على اللغة العربية ويخلو الجو للغة الفرنسية في التداول والاستعمال، وحتى تربط إجراءاتها بالواقع، وتشجع الطلبة على الانتساب للمدارس التي تعلم اللهجات، أصبحت تشترط هذه الإجراءات في الوظيف العمومي و عند الترقية في السلك الإداري .

7. إيهام الناس بأن اللغة الفصيحة صعبة :

لقد حاول منظرو الاستعمار أن يجعلوا من الفصيحة لغة ميتة مثلها مثل اللاتينية، فقد قالوا بأن العربية الفصحى لا توجد إلا في الخطب المسجدية والدروس والأذكار، وبالتالي فهي لغة طقوس، حسبهم، تستعمل في الدين، مثلها مثل

اللاتينية القديمة، وحاولوا أن يطوروا اللهجات المحلية تطويرا تطبيقيا، وبهذا راحوا يعلمون الفرنسيين من جند وغيرهم اللغة الدارجة ليسهل عليهم التعامل مع أهل البلد ويذكر الكيس دوطوكفيل هذا الانشغال " أبدى لنا د . ترولييه *Trollier (24 ماي 1841) ملاحظة صحيحة قال :إنه أمر مزعج أن يحكم بلد بموظفين دون أي صنف من المراقبة من المحكومين، وهذا أكثر إزعاجا في مستوطنة لا يكون فيها الموظفون سوى مارين، مما يبقيهم غرباء خصوصا في مستوطنة كالجزائر يمنعهم القانون من التملك فيها " [27].

8 . فرنسة برامج التعليم بالعربية غداة الاحتلال :

يمكن أن نستعين بشهادة دو طوكفيل نفسه الذي زار الجزائر في الأربعينات من القرن التاسع عشر حيث يقول أنه لما دخل المعهد : " وجدت فيه 150 تلميذا منهم 30 يتمتعون بالنظام الداخلي نظير دفع 600 فرنك، الخارجيون لا يدفعون شيئا، درس العربية إجباري للجميع، يسير المعهد بنظامين تربويين، أقسام لليونانية واللاتينية كما في معاهدنا وتعليم غير كلاسيكي ... على أي حال ليس هناك تلميذ عربي واحد في المعهد، ويقال إنه سيكون هناك تلاميذ عرب إذا أمكنه توفير منح لاشك في ذلك " . فغالبية التلاميذ هم من المستوطنين " تسود في أوساط التلاميذ حركة خارقة للعادة لا يقضي معظمهم بالمعهد سوى شهور قليلة، إنهم أبناء الضباط الذين يأتون من أوروبا ويعودون إليها " [28] .

فالتعليم إذن مقتصر على أبناء المستوطنين، وهو تعليم أوروبي خالص، وقوله أن اللغة العربية إجبارية، فلم يكن لها إلا وقت محدود في الأسبوع، و من جهة أخرى فاللغة المقصودة عنده هي اللغة الدارجة التي جندت لها سلطات الاحتلال المترجمين و المعلمين لتعليمها للمستوطنين و للجنود ليتسنى لهم التعامل مع الجزائريين، و لهذا نجد دوطوكفيل يذكر لما سأل ترولييه، ما هي الفروق الموجودة بين العربية المنطوقة والعربية المكتوبة ؟ فقال : " نفسه الموجود بين الإيطالية

واللاتينية، اللافت للنظر أن كل العرب الذين يكتبون، يستعملون اللغة نفسها، أي لغة القرآن، التاجر يكتب مذكرات بلغة محمد {صلى الله عليه وسلم }، ويتحدث بالدارجة الحديثة التي لا نحو لها والتي لا يمكن تبعا لذلك تسميتها بالضبط لغة، وهكذا تتواجد اللغتان (العربية وعاميتها) متنافستين يستعملهما الأشخاص أنفسهم" [29].

وهذا يبين أن واقع العربية هو واقع غالبية اللغات العالمية إذ أن كل لغة ذات مستويات، فمستوى اللغة التي يتعامل بها العامة ليس هو نفس مستوى اللغة التي يتعامل بها المثقف [30]، ولكن الفرنسيين أرادوا أن يوجدوا هوة بين اللغة الفصيحة والدارجة حتى يسهل إبعاد الناس عن القرآن، ولهذا مباشرة سأل دوطوكفيل عن أجود ترجمة للقرآن ؟ ولهذا أجابه تلميذ دوساسي : " أنها ترجمة أستاذه دوساسي : أنيقة ولكنها غير دقيقة، ليست هناك ترجمة جيدة الآن، القرآن هو مصدر القوانين والأفكار والأخلاق لكل هؤلاء السكان المسلمين الذين يعنوننا ـ ينبغي أن تكون أول مهمة علمية للحكومة هي محاولة ترجمته على أحسن ما يمكن بطبيعة الحال "[31]، ولما سأل دوطوكفيل عن الوقت الذي يقضيه شخص عادي الذكاء وبعمل دؤوب في تعلم اللغة العربية المكتوبة ؟ أجابه : من أربع إلى خمس سنوات على الأقل، أما العربية المنطوقة بإمكان الإنسان أن يحقق غرضه في فترة أقل من الشهور إذا رغب في الذهاب إلى المقاهي، ومخالطة المورس "، و هو ما يعبر عنه بالانغماس اللغوي، أي تعلم اللغة من خلال المعايشة، و هو ما طبق فيما بعد فعلا، حيث صارت الصحافة كما سيتبين لاحقا تروج للدارجة، كما أن العقود و المعاهدات و المراسلات كانت تتم بالدارجة أيضا، و ساهم العديد من الجزائريين الذين اندمجوا مع الأوروبيين في الترويج للدارجة أيضا .

9. منع الرحلات إلى الحج و الاحتكاك بدول المشرق :

من الوسائل المتبعة في سياسة الفرنسة إدراك السلطات الفرنسية أن للركن الخامس من أركان الإسلام دور بارز في الاتصال بالعرب و المسلمين، و تطور

الوعي القومي، و الإحساس بالرباط الإسلامي العربي بين الجزائريين و العرب، و لهذا لم تكن تعط الرخص للسفر إلى الحج إلا لمن ترضى عنهم، أو من له نفوذ عائلي، أو بحيلة من الحيل يقوم بها الجزائريون للحصول على رخصة للحج .. لا شك أن أوضاع الدول العربية الأخرى فيما يخص الجانب الثقافي تختلف جذريا عن الوضع في الجزائر، فمحاربة الدين و اللغة أمر لم تشهده باقي الدول العربية الأخرى و إن كانت تحت الاستعمار بشكل أو بآخر . و لهذا فخروج الجزائريين إلى هذه البلدان يعطيهم نفسا جديدا تجاه عرقهم العربي الإسلامي . لقد عمل الاحتلال على التقليل من تأثير الدين الإسلامي في نفوس الجزائريين و يمكن أن ندلل لذلك " بالاحتجاج الذي قام به الكاردينال لافيجري على سلطات الاستعمار عندما سمحت لسكان جرجرة بأداء فريضة الحج، و ذلك بعد أن رفع الجنرال شانزي الحضر الذي كان مفروضا على الجزائريين من أجل زيارة البقاع المقدسة، بعد ثورة المقراني، و قد ذهب في ذلك العام لأداء مناسك الحج 83 حاجا من دائرة الأربعاء ناث إيراثن وحدها، كما قدم سنة 1879 ما مقداره 118 طلب رخصة لنفس الغرض "[32]

10. إتباع سياسة التجهيل للقضاء على اللغة العربية :

لقد اتبع الفرنسيون للقضاء على اللغة العربية سياسة التجهيل التي دامت سبعين سنة، و كانوا يدعون أنّ الجزائريين لا يقبلون على المدارس خوفا من التنصير، و يزعمون تارة أخرى أنّ المال يعوزهم، و لعل أبرز الأسباب لسياسة التجهيل المتعمدة هو معاقبة الجزائريين على مقاومتهم المسلحة،كما أنّ الفرنسيين كانوا يخشون من أنّ التعليم عموما سيؤدي بالجزائريين إلى اليقظة و الإطلاع على أحوال العالم، فتتكون من بينهم جماعات و أحزاب تطالب بالحقوق السياسية و تحارب الفرنسيين بأسلحتهم [33].

وجاء في تقرير عن السياسة الاستعمارية من قبل حزب الشعب الجزائري أنه " منذ احتلال الجزائر والاستعمار الفرنسي يمارس سياسة التجهيل، وهو يعرقل تعلم اللغة العربية التي هي لغة الآباء والأجداد، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه لا يسمح بانتشار التعليم الفرنسي إلا مقدار " [34] .

ففي 21 مارس 1908 طالب مؤتمر الزراع الفرنسيين بإلغاء التعليم الابتدائي بالنسبة للجزائريين لأن ذلك سيكون خطرا عليهم من الناحية الاقتصادية، ومن ناحية توطين الأوروبيين بالجزائر [35]

" فضغط الكولون على الإدارة منذ1891 لكي تقضي على بقايا المدارس الوطنية القديمة التي كانت موجودة في الزوايا أو على الأقل إخضاعها لرقابة إدارية صارمة، بحجة أن التخلي عن مراقبة هيئات التدريس يعني تهديدا لمستقبل الجزائر .. بل لم يقتصر عداء الإدارة الاستعمارية و عداء غلاة الاستعمار على توفير فرص التعليم للأهالي فحسب ؛ بل نجحوا منذ 1891م من منع تعليم اللغة العربية في المدارس القليلة التي كانت موجودة، بحجة اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة، حتى قال أحد الجزائريين المتفرنسين : إن تعلم اللغة العربية أصعب من تعلم اللغة الفرنسية حتى بالنسبة للجزائريين "[36]، و ضمن سياسة التجهيل أيضا و عداء السلطات الاستعمارية لتعليم الجزائريين أذكر قلة الاعتمادات المالية، " لا سيما بعد ثورات 1871م، وانتشار المشاعر العدائية بين المستوطنين حتى لم تزد مخصصات التعليم العربي في سنة 1897م عن 33000فرنك و وصلت بعد اثنتي عشر سنة 49000فرنك فقط " [37].

11 . غلق المدارس ومنع المعلمين من التعليم العربي :

قد يندهش الكثيرون عندما يلاحظون أن الأغلبية الساحقة من الجزائريين يعجزون عن تكلم اللغة العربية، وإذا كان 90 % من الجزائريين لا يتكلمون العربية الفصحى إبان الاحتلال فالذنب ذنب الاستعمار الفرنسي " ذلك أنه ما إن

تم الاحتلال الفرنسي حتى نشبت حرب شعواء على اللغة العربية، و هذا بإصدار قرارات تنص على هدم المؤسسات التعليمية ومصادرتها طيلة القرن التاسع عشر، و يمكن أن نمثل ببعض القوانين والتي نصت بصراحة على غلق المدارس، ومنع المعلمين، فقانون 24 سبتمبر 1904 مثلا يقضي صراحة بعدم السماح لأي معلم جزائري أن يفتح مدرسة لتعليم العربية دون الحصول على رخصة من عامل العمالة أو الضباط العسكريين في المناطق الخاضعة للحكم العسكري، أما من تمنح له الرخصة فهو يخضع للشروط الآتية [38]:

1 ـ أن يقتصر تعليمه على تحفيظ القرآن الكريم فقط دون غيره .

2 ـ أن لا يقوم بشرح آياته وخاصة التي تتحدث عن الجهاد .

3 ـ أن لا يقوم بتدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها وتاريخ وجغرافية العالم العربي الإسلامي .

4 ـ أن يكون مخلصا للإدارة الاستعمارية، ويخضع لأوامرها مهما كان شأنها .

5 ـ يحظر على المدارس بعد الإذن بفتحها أن تستقبل الأولاد الذين في سن الدراسة أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية حتى ولو كان ذلك في القرى التي تبعد عنها بأكثر من ثلاث كيلومترات .

وقد كان قرار 21 مارس 1908 يطالب بإلغاء التعليم الابتدائي بالنسبة للجزائريين .

وهكذا يتبين جليا أن الاستعمار الفرنسي جعل من اللغة العربية لغة أجنبية، وأغلق جميع المنابع التي من شأنها نشرها وتطويرها وما قرار 1938 الذي أصدره وزير المعارف الفرنسي، والذي يعتبر العربية لغة أجنبية في الجزائر، ويمنع تعليمها تبعا لذلك في المدارس إلا دليلا واضحا على ذلك.

12 . تغلغل سياسة الفرنسة حتى داخل مدارس الجمعية :

لقد عمل الفرنسيون على القضاء على اللغة العربية بكل الوسائل، ولم تكتف بنشرها في حدود هيئاتها ومؤسساتها بل دخلت إلى المدارس الحرة وحاولت فرضها . ويمكن أن نمثل لذلك بمواقع في مدرسة الشبيبة بعد رحيل محمد العيد آل خليفة، وما أقدمت عليه من توظيف للعديد من المعلمين الفرنسيين وأنقصت من تعليم العربية وهمشتها، "إلى أن اكتشفت الجمعية فعلا عند ثلاثة معلمين فرنسيين عوضناهم بمعلمين بالعربية، وبقيت مساعدة واحدة قديمة وصفتها الجمعية (بوصية)، هي مسيحية العقيدة تشبثت بالشبيبة تشبث إرساليات المبشرين بالفراغ الذي يحيط بهم، وهي ترى مغادرة الشبيبة معناه إزهاقة روحها، رغم أنها تقيم في بلدية أولاد موسى مع أبيعا المعمر، تقطع أكثر من 60 كلم في كل يوم وتصل قبل الوقت إلى المدرسة، حيث لم يسجل عليها غياب أو تأخر طول مدتها، فبقيت صامدة فيها مثبة لوجودها، مبرهنة على إتقان عملها، وتتقاضى من الجمعية مرتبا زهيدا لا يسمن ولا يغني من جوع، إلا أنها تتحمل ـ من غير شك ـ على أضعافه من الجهة (الوصية) [39] .

الظاهر أن برنامج العلماء قد أقلق الفئة المحافظة من الجزائريين من جهة، كما أقلق الإدارة الفرنسية من جهة أخرى، وراحت هذه الأخيرة تضع العراقيل لشل نشاط الجمعية فقرر تعزيز الرقابة على تحركاتهم ونشاطهم داخل العمالات الثلاث:الجزائر، قسنطينة ووهران، كما حولت الإدارة الاستعمارية برجال الدين الرسميين ورجال الطرق والزوايا احتكار الوعظ والإرشاد داخل المؤسسات الثقافية والمساجد وألزمتهم بمراقبة كل نشاطات الجمعية وإخبار الإدارة الفرنسية بذلك، بل عملت الإدارة على تأسيس لجان استشارية دائمة في كل المقاطعات وأسندت رئاسة هذه اللجان إلى السيد "ميشال" .

وبتطور الأحداث في الجزائر، ركزت الإدارة على تطويق نشاط رجال الإصلاح، ففي سنة 1932 أصدرت مرسوما لنخبة البحر المتوسط الفرنسية يقضي بمنع التعليم العربي في المدارس الحرة والمساجد، ولما تصدت الجمعية لهذا القرار

بمظاهرات أصدر ميشال الكاتب العام بالولاية قراره المشؤوم في 16 ـ 02 ـ 1933 للحد من نشاط رجال الجمعية ومنعهم من الوعظ والتدريس في المساجد ومما جاء في قراره : " وعليه فإني أتعهد إليكم أن تراقبوا بكامل الاهتمام ما يروج في الاجتماعات والمسامرات التي تعقد باسم جمعية العلماء والتي يترأسها السيد ابن باديس ولسانها الرسمي في الجزائر الشيخ الطيب العقبي، كما يجب أن تشمل مراقبتكم المدارس القرآنية " [40] .

ثم صدر قرار آخر بعد يومين أي في 18 ـ 02 ـ 1933 يقضي بمنع العلماء الأحرار من ممارسة أي نشاط داخل المساجد ومما جاء فيه : " أنهي إلي أنه تكرر وقوع خطب ودروس ومحاضرات في المساجد، قام بها أناس ليسوا من رجال الدين الرسميين وذلك بموافقة رجال الديانة صراحة أو بالسكوت " [41] .

وهداني أنه وقع تعاطف واضح، وتقارب بين رجال الإصلاح وبعض رجال الدين الموظفين .

ولم يكتف ميشال بقراره، بل تابع بإلحاح مراقبة رجال الإصلاح وحتى رجال الدين الرسميين، وحذرهم من الغوص في المشاكل السياسية داخل المسجد، وأن تكون خطبا تقليدية جافة كما هو مألوف عند المدرسة المحافظة، كما طلب من مدير الشؤون الأهلية أن لا يرخص للقائمين بأمر المساجد بإلقاء خطبهم إلا بعد استشارته، ومراقبة تلك الخطب [42] .

ولم تكتف الإدارة الفرنسية بذلك ففي 24 / 02 / 1933 أصدرت قرارا جديدا بحل الجمعية الدينية التي يترأسها أحمد بن صيام الموظف الرسمي في إدارتها، وأمرت بتأسيس جمعية دينية جديدة، وأسندت رئاستها إلى الكاتب العام ميشال [43] .

وهكذا يبين أن السياسة الفرنسية استمرت في الوقوف ضد التعليم العربي مثلما كان الأمر عليه في القرن الماضي من خلال العديد من القرارات التعسفية ضد العربية في الجزائر .

13 . مجابهة السلطات الفرنسية لجهود جمعية العلماء في نشر العربية :

لقد عمل التيار الإصلاحي بهدوء ومهادنة للاستعمار قصد بناء صرح الدولة الجزائرية بتثبيت دعائم التعليم في الشباب وإعداد جيل متعلم بجميع قيم العروبة والإسلام، واتخذت لذلك وسائل عدة كما سيأتي بيانه في الفصل الثالث، ولكن السلطات الاستعمارية وقفت بالمرصاد لهذه الجهود " لقد عاملت السلطات الاستعمارية " العلماء " معاملتها رجال السياسة، وأخضعت نشاطهم الديني لنفس القوانين التي تحدد المساس بالسيادة الفرنسية ... فأخذت تستفز أنصارها، وتعتقل وعاظها، وتسعى لتحويل المدارس الحرة إلى أوكار تجسس، كما أخذت تكيد لشخصيات مرموقة كيدها المعهود، ابتغاء الحط من قيمة الجمعية " ولم تكتف بخلق جو من الرعب المعنوي ترهب المعنوي ترهب به العلماء والجماهير التواقة إلى الحرية بل راحت تقرر وحدها رزنامة خاصة بشهر رمضان والأعياد والحج، وذهب بها الأمر إلى أبعد من ذلك، فقضت بتعليم اللغة العربية في مدارسها "[44] .

هكذا إذن تلقت جمعية العلماء المسلمين رغم ما جاء في أهدافها ومبادئها عند إنشائها حيث صرحت في قانونها الأساسي أنها جمعية غير سياسية، ورغم ذلك فإنها لم تنج من الحبس والتغريم والنفي والإبعاد .

14 . الاهتمام بتأسيس الجمعيات لنشر اللغة الفرنسية :

لقد اهتم الاحتلال الفرنسي بالتعاون مع الجانبين المدني والعسكري على تأسيس العديد من الجمعيات التي تسهر على فرنسة الجزائر، ويمكن التمثيل لذلك بـ" الجمعية الوطنية لنشر اللغة الفرنسية [45] Association Nationale pour la propagation de la langue française، وقد تأسست هذه الجمعية سنة 1883، وكان هدفها الأساسي ربط الوصال الثقافي للدول المستعمرة بالدولة

الاستعمارية الأم " فرنسا "، وكان رئيس الجمعية بول بورت (PAUL – BERT) ويعينه في تسيير الجمعية الكاردينال لافيجري، وكان هذا الأخير نائبا لرئيس الجمعية، وهذا يبين مدى اهتمام المبشرين والمنصرين بالجانب اللغوي لاسيما الفرنسية، والقضاء على اللغة العربية لما في هذا العمل من تسهيل لأعمالهم، و إن كانوا في بعض الأحيان يتعلمون اللغة العربية لكي يندمجوا مع أفراد الشعب البؤساء، ليحققوا مآربهم بعد ذلك .

وكان في مكتب التسيير أيضا ثلاثة آخرون [46]: النائب الجمهوري كارنو (Le senateur Republique Carnot) والجنرال فريدرب (Générale Fridherbe) والقس جوليان دولاقرافيير (Le Pasteur Julien De la Gravière) .

إن تأسيس مثل هذه الجمعيات كان منتشرا في الجزائر، فما من هيئة تنظيمية كولونيالية إلا وتسيير كل أعمالها كان باللغة الفرنسية كما أنها كانت تحتقر العربية والعرب .

15 .الجمعيات التبشيرية وسياسة الفرنسة :

بعدما يقرب من أربعين (40) سنة من الاحتلال برزت إلى الوجود جمعية الآباء البيض التبشيرية (أو جمعية مبشري السيدة الإفريقية)، وقد استغل مؤسسها الكاردينال لافيجري ظروف معيشة الجزائريين الناتجة عن الاحتلال والمجاعات، فتسترت وراء تقديم الإغاثة للمتضررين، فعملت على التنصير كخطوة أولى، ثم على تأسيس التعليم التبشيري كخطوة ثانية في الجزائر [47]، لقد كان لهذه الجمعية جناحان آخران هما : الأول نسوي (جمعية الأخوات المبشرات للسيدة الإفريقية)، والثاني : جمعية إخوان الصحراء المسلمين . " لقد كان لأعضاء هذه الجمعيات بعض الخصوصيات ليس فقط في حماسهم الكبير لتنصير الشعب الجزائري، بل في كونهم يتقنون اللغة العربية ويتحدثون اللهجات المحلية، " [48] . إن هذا النص

الأخير يبين بوضوح استعمال هؤلاء المبشرين للغة العربية الدارجة، وقد ترجموا الإنجيل إليها لتسهيل تلقينه للجزائريين ..لقد انتشرت هذه الجمعيات في القرى النائية للجزائر بكثرة، وظهر للعيان تغلغلهم في المجتمع الجزائري، وحاولوا بكل قواهم، وبما أوتوا من مال وحماية عسكرية الوصول إلى أهدافهم التنصيرية في الجزائر، بينما كانت الخدمات التعلمية هي وسيلة فقط " لم يكن يهم المبشرين أن ينال أبناء الجزائر حظا وافرا من العلم والمعرفة، بقدر ما كان يهمهم دخولهم إلى الكنيسة بحضور القداس إلى الصلاة أمام الصليب، إن المبشرين و بعدما يزيد عن 40 سنة من تأسيسهم الرسمي لمدارسهم في الجزائر لم ينشئوا ثانوية واحدة لكي يواصل فيه التلاميذ الجزائريون تعليمهم، مما قد يفتح لهم أبواب الجامعة، لقد كان همهم في هذه الفترة هو تكوين جيل يتقن بعض المبادئ الأساسية من اللغة الفرنسية، وبعض تعاليم الإنجيل، وذلك قصد تشغيلهم في مدارسهم كممرنين لتلقين ما تعلموه لذويهم [49] .

إن فلسفة التعليم التبشيري في الجزائر قائمة على هدفين :

ـ الدعوة إلى اعتناق النصرانية بين صفوف أبناء الجزائريين، ومن ثمة محاربة الدين الإسلامي واللغة العربية .

ـ خدمة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وخاصة من الناحيتين الاستيطانية والثقافية (تعليم الفرنسية)

لكن يمكن أن نتبين أهدافا أخرى وراء التعليم التبشيري لها علاقة مباشرة بسياسة الفرنسة [50]:

1 – القضاء على الدين الإسلامي و اللغة العربية باعتبارهما من معوقات العمل التبشيري .

2- نشر لغة و ثقافة المستعمر بين الجماهير الجزائرية، باعتبارهما أدوات تسهل للاستعمار البقاء في الجزائر .

3 – تكريس الاحتلال و الإدماج و القضاء على الثورات الوطنية التي توالت ضد الاستعمار الفرنسي .

4- تهيئة الأرضية الصالحة للتنصير و إعادة المجد الروماني الذي كان قبل الفتح الإسلامي.

5 – التنصير الذاتي

6- تكوين نخبة من الجزائريين موالية لفرنسا.

7- مؤازرة التعليم العمومي المدني الفرنسي لتعميم سياسة الفرنسة .

نخلص من هذه النقاط أن الجمعيات التبشيرية من المعاول الهدامة للغة العربية في الجزائر إبان الاحتلال، فقد أدركت أن اللغة العربية هي واجهة الإسلام، لأنها لغة القرآن، و القضاء عليها بمنع تدريسها، و مزاحمتها بالمدارس التبشيرية أو العمومية، يعني الوصول إلى إبعاد الجزائريين عن فهم دينهم، " و من أجل هذا اغتاظ الكاردينال لافيجري عندما أدخلت سلطات الاحتلال اللغة العربية كمادة دراسية في مدارس التعليم العمومي، على الرغم من أن تعليمها كان وسيلة لاستدراج التلاميذ العرب إلى تلك المدارس "[51]

16 تعليم البنات :

ظهر منذ عام1845م للقادة الفرنسيين فكرة إنشاء مدارس خاصة بالفتيات المسلمات، حيث اهتمت بهذا الموضوع إحدى المربيات الفرنسيات [52]، فقد كتبت السيدة اٌليكس(M^me ALLIX) إلى وزير الحربية الفرنسية قائلة : " إنّكم – سيدي الوزير– لا تجهلون...إنّ أكبر تأثير في إفريقيا هو تأثير المرأة، كما هو الحال في أوروبا، إنكم إذا خصصتم لحضارتنا 100.000 من الفتيات الجزائريات اللاّتي ينتمين لمختلف طبقات المجتمع ستصبحن في المستقبل زوجات بارعات ومحظوظات... وسيضمن لكم خضوع البلد إلى الأبد...و

ذلك بالتأثير على أزواجهـن... غـير أنّ تحقيق هذا الهدف الرائع يقتضي مبلغا يقدر بحوالي 200000 فرنك [53].

إن هذه المرأة الفرنسية كانت قد كرست حياتها لتحقيق هذا المشروع الاستعماري، وكانت تهدف إلى تعليم أوسع مفرنس بالدرجة الأولى يهدف إلى التغلغل في أوساط المجتمع الجزائري، ولقد قالت : " لقد جبت الأوساط العربية، وتكلمت إلى العائلات عن هدفي ... وكنت أصطحب معي في زيارتي لكل عائلة هدية إحسان وسخاء ... وأكدت خاصة احترامي لدين البلد ... " [54]، وهكذا كانت هذه الطريقة ضمن السياسة الفرنسية للقضاء على اللغة العربية في الجزائر، وتجدر الإشارة إلى أن المبشرات لعبت دورا كبيرا في هذا الصدد، وعلى الرغم من انغلاق الأسر الجزائرية ورفضهم أن تلتحق بناتهم بهذه المدارس التبشيرية إلا أن المد التنصيري بقي يجابه في مقاومة الشعب الجزائري، لقد كان اهتمام هذه المدارس بالتعليم قليل جدا فكل ما استطعن (المبشرات) تقديمه للتلميذات " وأغلبهن يتيمات " [55] لا يعدو أن يكون " مبادئ في الحساب والقراءة والخط، وذلك في نطاق ضيق، وحسب ما يسمح به الوقت المتوفر " [56]، لقد عملت المبشرات على تلقين الفتيات الطبخ، الغسيل، الخياطة، الترقيع، الحياكة، ويضاف إلى فنون التدبير المنزلي بعض الحرف التي ينتج عن ممارستها أدوات مثل " السلال والقفف في منطقة القبائل واشتغال الصوف (صناعة الزرابي) في بسكرة والأغواط وغرداية والقليعة " [57].

وغني عن التذكير أنه لم يكن التعليم هدفا في حد ذاته، أي تبليغ المعرفة العلمية في أي شكل من أشكالها، بل كان الغرض هو تحقيق الأغراض النصرانية، كما أن وضع برنامج يرتكز أساسا على فنون التدبير المنزلي يرمي إلى تكوين ربات البيوت اللواتي سيحسن إدارة شؤونهن الزوجية في المستقبل، ولكن هل هذا حب في تطوير الأسرة الجزائرية ؟

إن هدف المبشرات هو عكس ذلك تماما، فهن بالاعتماد على هذا النوع من البرامج التعليمية يرمي إلى إعداد زوجات [58] (متنصرات إذا أمكن) للتلاميذ الذين يزاولون دراستهم في مدارس المبشرين، وبذلك تنفصل الأجيال عن ماضيها منذ الصغر وتأخذ من دين وثقافة المستعمر، و تتكون أسرة بعد ذلك لا يجري على لسانها إلا اللغة الفرنسية، و لا يسمع أبناءهم في مهدهم بعد ذلك إلا اللغة الفرنسية، و كما هو مقرر عند علماء اللسانيات أن السمع أبو الملكات اللسالنية، فإن البيئة السماعية للمجتمع المنشود تكون فرنسية .

لكن رغم ذلك فقد واجه الجزائريون هذا التعليم فلم يكن من السهل إقناع الجزائريين بأن يوكلوا أمر تربية بناتهم إلى المبشرات، وخاصة إذا وقفوا على النوايا التنصيرية لهن، ولهذا لم يعرف تعلم البنات تطورا كبيرا .

و يمكن أن أورد في هذا السياق أمورا كثيرة تتعلق بهذا الموضوع (الموارد البشرية) منها :ما يتعلق بتشجيع أعضاء جمعية الأخوات المبشرات للسيدة الإفريقية على التغلغل في صفوف البنات و استدراجهم عن طريق تعليمهم أشغال البيت و كذلك بعض الحلويات و مهن الطرز، و في نفس الوقت تعليمهم اللغة الفرنسية كلغة حضارة، بينما تقدم لهم نماذج مزرية من العرب و العربية، كما نجد أن الاحتلال عمد إلى إرسال العديد من الطلبة المتفوقين في المدارس الفرنسية إلى فرنسا ليطلعوا هناك على مآثر الحضارة الأوروبية، ثم يعودون ويكتبوا ما شاهدوه في رحلاتهم [59] و يمكن أن نمثل برحلتي ابن صيام و بن قاد . فاهتمام فرنسا بالجانب البشري له عدة و جوه تصب كلها في فرنسة الجزائريين، و عزلهم عن انتمائهم الطبيعي .

17. اختطاف أبناء الجزائريين، و تعليمهم و تعميدهم :

ثم إرجاعهم بعد ذلك كعاملين في صفوفهم، و هي من الجرائم التي وقعت ابان الاحتلال، و ذلك بعد انتشار التعليم العمومي، حيث رأى المبشرون أن ذلك

يجعل من مدارسهم جدران بلا أحد، فتسبب ذلك في تهريب بعض التلاميذ، واشتكى العديد من الأهالي لسلطات الاحتلال من هذه الظاهرة، ومن رجال الدين ورجال الجزويت، مما أدى إلى غلق بعض هذه المدارس في منطقة القبائل [60]، و لكن هذا الأمر لم يمس جمعية الآباء البيض .

18. التفتيش الدائم لمجالات التعليم الباقية لغرض تطوير الفرنسية و القضاء على اللغة العربية :

يمكن أن نذكر هنا قانون 30 أكتوبر 1886، و الذي تنص المادة 68 منه على وجوب تطبيقه في الجزائر ، ومرسوم 18 أكتوبر 1882 واللذان جاءا في أعقاب الإصلاحات التي تسعى إلى تحقيقها وزير التعليم الفرنسي العمومي جول فيري Jules Ferry ابتداء من سنة 1880 . فقد جاء في المادة التاسعة من قانون 30 أكتوبر 1886 [61] :

يقوم بمهمة التفتيش في المدارس الابتدائية العمومية أو الخاصة :

1 ـ المفتشون العامون للتعليم العمومي .

2 ـ مديرو الجامعات ومفتشوا الأكاديميات .

3 ـ مفتشو التعليم الابتدائي .

4 ـ أعضاء المجلس العمالي (الولائي) المعينون لهذا الغرض .

5 ـ شيخ البلدية ومندوبو البلدية .

كما نص مرسوم 18 أكتوبر 1882 [62] في مادته السابعة والأربعون : توضع هذه المدارس تحت المراقبة القانونية للسلطات التعليمية، و علاوة على ذلك تكون تحت المراقبة الخاصة للحاكم العام الذي باستطاعته أن يغلقها إذا تعلق الأمر بالنظام العمومي . بينما نصت المادة السابعة والخمسون على أن تفتيش المدارس العمومية أو الخاصة الموجهة للأهالي من طرف شخصيات معينة ذكرها القانون . هذه إشارة فقط لما كان عليه التعليم في الجزائر إبان الاحتلال، فالحقيقة أن هذه المراسيم التي يذكرها أجورن و جليان و غيرهما حينما يتحدثون عن التعليم في الجزائر، إنما

كانوا يتحدون عن التعليم الموجه للمستوطنين من أبناء الكولون على تعدد أعراقهم و جنسياتهم الأوروبية، فقد كانت المدارس بالجزائر تفتح لهم بسخاء، و عندهم معلمون و هيآت تفتيش و غير ذلك، بينما أبناء الجزائريين فلا يلتحق بهذه المدارس إلا من كان صاحب حظ في زمانه . بينما التفتيش في المدارس العربية و في الكتاتيب القرآنية التي لا تزال مقاعدها هي الحصير، و في التعليم المسجدي بصفة عامة فقد كان يقوم به كل من يملك أدنى سلطة في الدولة، بل قد تغلق المدرسة بمجرد وشاية كاذبة من معمر رأى أن بساتينه خالية من اليد العاملة بسبب تعلم الجزائريين في مسجد أو مدرسة قريبة من مزارعه .

19. المكاتب العربية و الثقافة الاستعمارية:

لقد سعى ضباط المكاتب العربية [63] لتعلم العربية ومعرفة تقاليد المجتمع، ذلك أنّ الهدف الاستعماري لم يكن ليقف عند مآرب مادية بحتة،بل تجاوز ذلك إلى محاولة تشكيل الفكر الأهلي حسب التصور الاستعماري بعبارة أخرى تحقيق ما يسمى بـ"**الاستعمار الفكري**" [64] .

لقد كان من مهام المكاتب العربية في مجال التعليم الأهلي تقتصر على مراقبة و حراسة التعليم الأهلي لأن ضباط تلك المؤسسة كانوا يرون أنّ المساجد والزوايا إنّما تتخرج منها"عناصر متعصبة معادية للسلطة الفرنسية" و لم يخف ضباط المكاتب العربية موقفهم تجاه الطلبة [65](مدرسو القرآن أو الكتاتيب) فهم في نظرهم أعداؤهم الحقيقيون، تلك الفئة الطلابية التي كان اغلبها من الشباب،قد تم اكتشاف دورها السياسي و الثقافي و العلاجي والتضامني مع الأهالي بعد مدة.

لقد كان التعليم الأهلي باللغة العربية مكفولا في القبائل التي ما انفكت تسعى لتشجيعه قصد تعليم أبناءها القراءة و الكتابة غير أنّ ظنون و شكوك ضباط المكاتب العربية تجاه هذا التعليم، كما أنّ موقف هؤلاء "**الطلبة**" العدائي تجاه الإدارة

الاستعمارية تترجم تخوفات هؤلاء الضباط:" **إنّ كل الطلبة – تقريبا ـ المكلفين في القبائل بتعـليم التلاميذ متعـصبون و جهلة**"، ففي أوساط هـؤلاء، كانت تتطـور الأفـكار المناهضة لنا...إنهم يقـودون مقـاومة ضدنا أكـثر مـن وظيفـة تعـليم الجديد فينبغي إذن إخضاعهم جميعهم إلى المراقبة"[66]، فيمكن أن نظيف إذن إلى الوسائل المعتمدة في محاربة اللغة العربية هذه المكاتب، فقد قامت بدور كبير من أجل تدهور اللغة العربية وانتشار اللغة الفرنسية فالأمر يرجع إلى " عداء المكاتب العربية لفكرة تعليم الأهالي، لأن مدارس الأهالي كانت في نظر الكثير من الضباط مجرد معامل لتعصب الأهالي (Laboration du fanatisme) و من ثم يوصي غلاة الاستعمار بإهمال تعليم الأهالي و إلى إقفال المدارس الخاصة بهم تماما منذ 1860م"[67]

20. المطالبة بتحرير العقود بالفرنسية :

من القرارات الرامية إلى إبعاد العربية من التداول إبان الاحتلال الفرنسي تلك القرارات " التي تطلب من الموثقين المسلمين (القضاة) أن يحرروا بعد هذا التاريخ (1906) عقودهم باللغة العربية، وإنما يجب تحريرها باللغة الفرنسية، وكان تقرير الحاكم العام Jonnart إلى الوزير واضحا في هذا الشأن حيث ورد فيه : " إن هذه المحاولة تروم إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية بصورة تدريجية في جميع العقود المبرمة في بلاد القبائل " [68]، وهذا يبين بوضوح أن السلطات الاستعمارية استعملت كل الطرق من أجل تفريقه وتشتيت اللحمة الجزائرية بما يعرف " بفرق تسد "، ولم تكن السياسة الفرنسية " تندرج في منظور إدماجي للقبائل، حيث لم يعد يحلم بذلك سوى بعض المفكرين في فرنسا، وإنما يندرج المفهوم في سياسة تمييز مقصود بين سلالتين في الجزائر " [69] .

لكن هذه المؤامرة لم تنجح حيث " تم تعيين خمسة محاكم للقضاة الموثقين كي تتولى إبرام العقود باللغة الفرنسية، فمنيت هذه التجربة بالفشل، فل يتم تحرير سوى 50

عقدا باللغة الفرنسية، طول 18 شهرا من جملة 2114 عقد مبرم، أي ما يمثل نسبة 23 ٪" [70] .

لقد فضل القبائل تحرير عقودهم باللغة العربية غير أن ذلك لم يمنع مدير الشؤون الأهلية من تبرير مبادرته .. وبالرغم من فشل تلك المحاولة الأولى " فإن إدارة شؤون الأهالي حررت في سنة 1910 مشروع مرسوم يحل اللغة الفرنسية محل اللغة العربية بصورة شاملة لتحرير عقود القضاة الموثقين خلال مهلة لا تتعدى خمس سنوات " [71] .

لكن المواطنين رفضوا هذه المحاولة أيضا، كما أصدر النائب العام في 31 جانفي 1911 منشورا للتطبيق، وامتنع القضاة الموثقون عن الانصياع لذلك فلم يقوموا سوى باستنساخ أنماط عقود غير مكيفة مع واقع الناس وعينوا بعض " المتعلمين " للعمل في المحاكم التي يتعاملون معها مما ساهم في مضاعفة الأخطاء، ويقال أنه لم يتوفر سوى قاض واحد يحسن التحرير بلغة فرنسية سليمة، غير أن القبائل هجروا محكمته وفضلوا التوجه إلى قضاة آخرين أو إلى مساعديه الذين يحررون جميعا باللغة العربية " [72] .

لقد ركزت السلطات الاستعمارية على الحيلولة دون انتشار التعريب في منطقة بلاد القبائل حسب روبير أجرون بعد أن ظل القبائل حيارى من تلك التجربة الرامية إلى حملهم على التفرنس، فكانوا إلى تاريخ 24 ماي 1927 يطالبون بعدم بذل أية محاولة لمنع القضاة (المسلمين) من تحرير العقود باللغة العربية وحدها، ويبدو أن نتائج تلك التجربة دفعت المندوبين القبائل إلى التشكيك في كل قرار يخص شؤونهم .

لكن السلطات الاستعمارية واصلت محاولتها " للحيلولة دون التعريب الناجم عن تبني العربية كلغة ثقافة وكلسان تعبير ومحادثة، لأن يتم تثبيط انتشار اللغة العربية في بلاد القبائل، أو يمنع تدريسها في المدارس الفرنسية ... لم يكن

المسؤولون من الوزير إلى مدير الدراسات يخفون أبدا أنه لا يمكن السماح أبدا بتعريب السكان الناطقين باللغة البربرية بواسطة المدارس الفرنسية "[73].

21. اعتبار الصلة بالمشرق نوع من التبعية والاستلاب والضياع :

هذا منطلق آخر لسياسة الفرنسة، فقد عبر أحد دعاة هذا الاتجاه : "أنه من الجناية على النفس، ومن الخطأ السياسي السماح بانضمام منطقة المغرب إلى منطقة المشرق العربي، أو استخدامها مطية لمطامع الشعوب المشرقية العربية، فالمغرب لم يكن أبدا مشرقيا، ولم يكن عبر تاريخه إلا بعيدا عن تأثيرات المشرق لأن علاقاته كانت مع القارة الأوروبية التي زادها التاريخ تلاحما، فالمغرب منطقة وصل بين أوربا وأفريقيا، والمستقبل بالنسبة إليه يكمن في إنشاء الولايات المتحدة الأوروإفريقية "[74]، إن هذا الطرح يبين في العديد من الكتب والمجلات علاقة المشرق بالمغرب، كما أنه يهدف إلى اعتبار الفتوحات الإسلامية عاملا مخربا للجزائر، و يهدف إلى إشعار بعض شرائح المجتمع بأنهم أكثر قربا من الحضارة الفرنسية، وأنهم أكثر ذكاء ونشاطا وتقبلا للحضارة المعاصرة، وهذا ما عبر عنه أحد الكتاب الفرنسيين وهو (E . Carette) كاريت في كتابه "بحوث في أصول وهجرات القبائل الرئيسية بأفريقيا الشمالية "[75] بقوله : "كان هجوم العرب الفاتحين بالإعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل، وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الأشجار والمساكن دمارا تذروه الرياح، فما أبقاه الإعصار قضى عليه الحريق".

لكن الواقع يكذب هذه المزاعم "فالتاريخ لم يسجل ولو مرة واحدة قبل حلول الفرنسيين أية حركة مهما كان لونها أو نوعها أو طبيعتها بالمغرب تعادي العروبة أو تتنكر للإسلام، أو تدعو إلى التمايز العرقي، بل كانت كل أحداث التاريخ الجزائري تندرج في سياق واحد هو العمل على نشر لغة القرآن، وتعزيز مكانتها، والمساهمة في حضارته العربية الإسلامية "[76].

22. إيجاد تفسيرات مغرضة وأحكام متحيزة لأحداث التاريخ الجزائري :

لقد وجد العديد من الكتاب الفرنسيين هذا المدخل لتفتيت الشعب الجزائري، ففسروا التاريخ على أن الفترة العربية الإسلامية من تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي مرحلة انهيار وفوضى وتفكك وجمود، وهذا ليتسنى لهم فرنسة الجزائر، وربط الجزائر بالعهد الروماني مباشرة، فمن الرومنة إلى الفرنسة، فهؤلاء الكتاب في أطروحاتهم الجامعية يقولون أن " فترة العهد الروماني هي الفترة التي عرفت فيها الجزائر الاستقرار وتطور الزراعة وانتشار العمران، وتـماثلها في ذلك فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر " .

وهنا ينبغي لطلبة التاريخ المختصون في العصر الإسلامي ألا تقتصر دراستهم على الجانب السياسي والعسكري فقط، بل لا بد أن تكون هناك دراسات الجانب الثقافي إبان العهد الإسلامي لاسيما في عهد الدويلات المستقلة (الرستميين والأدارسة والأغالبة والفاطميين والحماديين والمرابطين والموحدين...) .

23. انتشار المكاتب الخيرية :

انتشرت المكاتب الخيرية منذ 1857 تاريخ إنشاء المكتب الخيري، وكانت صلاحيتها متعددة من بينها منح التعليم والصنائع وكانت موجهة لصالح الأطفال من فقراء المسلمين .. وكانت تعمل على نشر اللغة الفرنسية والمبادئ الفرنسية بين أطفال المسلمين .

24. محاربة اللغة عن طريق الصحافة :

الحديث عن الصحافة بعد الاحتلال إلى غاية 1919 هو حديث عن الصحافة الفرنسية بالدرجة الأولى، واللغة العربية كانت مبعدة في هذه الصحائف، وترجع نشأة الصحافة في الجزائر إلى سنة 1830 مع الاسطافيت، يوم 26 يونيو 1830، ثم توقفت بعد رحيل دي بورمون طريدا منفيا إلى إسبانيا بعد سقوط نظام شارل العاشر، وحل محله بعد ذلك كلوزيل ثم بيرتيزين ثم دوروفيقو الذي عرف عهده بالفضائح والمذابح، وفي عهده أنشأت مجلة المرشد الجزائري " المونيتور ألجريان " في

يناير 1832م، وقد شجع دي بوسيه صحيفة المونيتور وأنشأ لها قسما باللغة العربية، المكتوب بأسلوب ركيك لا يكاد يقرأ، وهو من الأساليب المعتمدة للتنفير من اللغة العربية لإقبال المثقفين بعدها على اللغة الفرنسية .

ومع ذلك فالمونيتور هي أول صحيفة خصصت للعربية جزءا على صفحاتها، وما كان ينشر في المونيتور بالعربية كان من إنشاء " جوني فرعون " المترجم العسكري ذي الأصول السورية المصرية [77]، وهو الذي عهد إليه إليه تدريس اللغة العربية للفرنسيين، وهكذا فإن الجزائريين قرأوا أخبارا بالعربية في أول صحيفة فرنسية تطبع في الجزائر، واستغرق ظهورها مدة طويلة (1832 ـ 1858) ثم عادت إلى الصدور باسم آخر " مونيتور الجزائر " واستمرت من 1866 إلى 1871 وقد كانت تنشر فيها إضافة إلى التعليمات الرسمية والقرارات الإدارية المقالات الإخبارية .

ويمكن أن نتكلم عن بعض ما نشر في هذه الصحيفة فيما يتعلق بموضوع اللغة العربية، فقد نشرت إعلانا عن ضرورة تعلم اللغة العربية للفرنسيين (09 / 01 / 1838)، وتنظيم مسابقات الترجمة، دروس اللغة العربية في كل من الجزائر و قسنطينة ووهران، وظهور بعض المطبوعات كالمعاجم الخاصة بالعامية والفرنسية إلخ ...

كما نجد في الصحيفة دعوة للجزائريين لإرسال أبنائهم للمدرسة الفرنسية وكذلك أخبار عزل المفتي الكبابطي 1843 .

والباحث يلاحظ أن هذه الصحافة ساهمت إلى حد ما في الترويج لفرنسة الجزائر وتعليم الفرنسية، وكذلك تعليم العاميات للفرنسيين والجزائريين، وكل ذلك هدفه القضاء على اللغة العربية التي تعتبر الواسطة بين الجزائريين وتراثهم الثقافي وانتمائهم الحضاري العربي الإسلامي . كما أن نظرتها الاحتقارية إلى اللغة العربية واضحة في مادتها، فمثلا بالنسبة للغة العربية فإن جريدة (الجزائر الجديدة) لم تكن تنظر إليها بأكثر مما كانت نظرتها إلى كيان هذا الشعب . فالشعب

الجزائري لم يعد في نظرها يعد شعبا له لغته وجنسيته وحضارته بعد أن أخذ منه كل شيء، بل صار في نظرها يعد مجموعة من العرب يجب إعطاؤها لغة وحضارة وجنسية فرنسية وإدماجها في المجتمع الفرنسي، ولقد عبرت عن رأيها بصراحة حيث قالت : " لقد أخذنا منه ـ أي من الشعب الجزائري ـ بالقوة وباسم حق الحضارة، ما كان قد امتلكه، وجردناه من أراضيه باسم الضرورة، والصالح العام، وحطمنا جنسيته، وأصبح لا يوجد أمام فرنسا إلا عرب وليس شعبا عربيا"، هذه هي نظرتها الصريحة في شعبنا وتأسيسا على ذلك فإن اللغة العربية لم تعد بالنسبة إليها إلا لغة محلية لا قيمة لها، ولم يكن موقفها هذا موقفا سلبيا أو موقف لامبالاة، بل ذهبت إلى اتخاذ موقف صريح بذلك والمطالبة بإيقاف إصدار الجريدة العربية الوحيدة التي كانت تصدرها الإدارة الفرنسية، لأنها كانت ترى عدم ضرورة وجود مثل هذه الورقة .

وترى أن اعتماد السلطات الإدارية على جريدة المبشر واللغة العربية لتكون همزة وصل بين (الحضارة الفرنسية) حسب قولها، من جهة والأهالي الجزائريين من جهة ثانية خطأ فادح ترتكبه [78].

لقد بلغ بهم الحد إلى قولهم إن التدخل المباشر من طرف الإدارة لهو أجدى وأنفع من (نشرة) لا قيمة لها (ولغة) لا تملك المقدارات الضرورية لاستعمالها في المصطلحات العصرية، فهم يريدون أن يطفئوا شعلة العروبة في الجزائر، والقضاء على هذه اللغة بكل ثمن ..محاولة ضرب اللغة العربية في القلب، والحط من قيمتها العلمية والحضارية والتاريخية [79].، واضح من موقفها هذا أنها كانت تهدف إلى حرمان الجزائريين حتى من أبسط شيء بقي لهم فيه أمل لبقاء ضوء خافت من لغتهم متمثل في هذه (النشرة) التي تكرمت ! بها عليهم الإدارة العسكرية بعد أن جردوا من كل مدارسهم والكثير من مساجدهم، فأرادت هذه الجريدة أن تغلق عليهم جميع الأبواب والنوافذ فاقترحت إيقاف هذه (النشرة)

التي كانت تطل على الأهالي ببعض الأحداث ضمن الأوامر والقرارات الصادرة من سلطات الاحتلال .

وهذا مثال بسيط على سياسة الفرنسة والقضاء على اللغة العربية في الصحف الناطقة بها، وتريد أن لا يبق الحرف العربي حيا ومنتشرا واصفة إياه بالتخلف، والبعد عن المصطلحات العصرية .

25. منع دخول المنشورات العربية :

لم يكتف المستعمر الفرنسي بالعمل على تجهيل الجزائريين، وحرمانهم من حقهم في التعليم، بل قد تطلع إلى أكثر من ذلك " فعمل المحتل على إطفاء نور العلم وشعلة الفكر الذي يفد على الجزائر من البلاد العربية، ومن ثم فلم يكن يصل إليها من المطبوعات المشرقية إلا القليل نظرا لما فرضته سلطات الاحتلال من أساليب الرقابة المشددة، والتي كان من ورائها (ميرانت) مدير الشؤون الأهلية بالولاية العامة الذي أصدر أوامره بحجز كل ما كان قد بلغه أنه وفد يومئذ على الجزائر من منشورات مشرقية"[80] .

ورغم كل ذلك إلا أن الجزائريين كانوا يقرؤون الصحف العربية مثل " العروة الوثقى " للإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده التي كانت مرجعا يستلهمون من أفكارها ما يغذون به حركتهم الإصلاحية والفكرية، و" المنار " للشيخ محمد رشيد رضا التي كانت مدرسة فكرية إصلاحية حضارية، و" الرسالة " لأحمد حسن الزيات بمصر، والتي كانت بحق مدرسة أدبية وثقافية يتسم منهجها الفكري والأدبي بالأصالة والعمق والوضوح والجمال، ومن بين قرائها أحمد رضا حوحو، أحمد بن ذياب، أحمد سحنون ... وغيرهم .

كما كان الجزائريون يتطلعون إلى قراءة الصحف المهجرية مثل (السمير، القلم الجديد) وغيرهما : يقول ابن باديس في هذا الباب : " فنحن ننشر المقالات العلمية

والأدبية وكل ما يغذي العقول من منظوم ومنثور، من صحف الشرق والغرب وأقلام كتاب الوطن "[81].

فهذه المنشورات كانت تمثل منابع الثقافة العربية المتجددة و الحاكية لواقع الشعوب العربية لهذا عملت سلطات الاحتلال على منعها من الوصول إلى الجزائريين، كونها بلغة الضاد من جهة و الحاملة للوعي القومي من جهة أخرى .

26. تغيير أسماء الشوارع والأبواب والمؤسسات :

لقد انتهجت الإدارة الفرنسية المدنية والعسكرية منذ دخولها الجزائر سياسة الفرنسة في هذا المجال فقد عملت على طمس معالم القيم الوطنية للجزائر بما فيها اللغة العربية، ويجعلون محلها الفرنسية، وقد شمل ذلك كل المدن الجزائرية بدرجات متفاوتة " لقد شرعوا في ذلك منذ الوهلة الأولى مما يدل على عزمهم على البقاء والاحتلال الدائم خلافا لما يزعم أنهم كانوا مترددين في البقاء وعدمه، وشمل الطمس تغيير الشوارع وأسمائها"[82]، لقد بقيت الجزائر العاصمة مدة طويلة عبارة عن " ثكنة عسكرية تحت رحمة جيش الغزو والاحتلال، وقد كانت مهمة الجيش ليس فقط الدفاع عن المدينة ولكن أيضا تغيير معالمها "[83] .

إن هذا العمل البشع بقيت آثاره إلى ما بعد الاستقلال، حيث دام الاحتلال الفرنسي للجزائر 132 سنة وطوال هذه الفترة ازداد عدد المعمرين وعاش أجيال منهم في هذه الديار المغصوبة، وحاولوا أن يبنوا لأنفسهم مئات الأحياء على أنقاض الأحياء العربية الإسلامية، لقد هدموا المنازل والمساجد والأضرحة، وغيروا في الطرقات في جميع المدن، ويمكن أن نمثل فقط بمثال واحد " فقد كان الطريق من البحر إلى المدينة يمر بالجامع الكبير، فوقع مده بطريقة تصدم مشاعر المسلمين، إذ وقعت تعرية الأسس التي كان يقوم عليها والتي زعموا أنها من الآثار الرومانية، وكانوا يعتقدون أن هيكل الجزائر القديمة (إيكوسيوم) موجود هناك، وأن المدينة الجديدة قائمة على تلك الأسس "[84]، وبعد اغتصاب ممتلكات

الجزائريين تغير أسماؤها وتعطى لها أسماء رومانية وأوروبية وفرنسية، ودينية ومسيحية وتاريخية، " وهذه بعض الأسماء التي أصبحت متداولة خلال سنتي (1832 ـ 1833): شارع يوبا، شارع شارل الخامس، شارع دوكين، شارع دوريا، شارع كليبر ... باب المرسى (باب الجهاد) صار اسمه باب فرنسا، شارع أورليان، وترواكولور (الألوان الثلاثة) لاشارت ... "[85].

و استمرت الأمور على تلك الحال، فسميت العلمة باسم السفاح سان طارنو، ومدينة بطيوة، بسان لو Saint- leu ومايسمى اليوم بوقرة كان يطلق عليه اسم السفاح روفيقو ....إن مئات الشوارع لا تزال إلى اليوم تسمى بأسماء فرنسية على الرغم من تغيير البعض منها وحملها لأسماء عربية فـ 132 سنة من الاحتلال غير وجه الجزائر من الطابع الشرقي إلى الطابع الغربي، لقد ظهرت في الجزائر دكاكين أوروبية ومخازن تجارية ومقاهي، ومطاعم يدار فيها الخمر وحافلات و ملاهي وكل هذه المحلات تأخذ طابعا فرنسيا، من خلال اللافتات الإشهارية المعلقة على الجدران والأبواب من الداخل والخارج، وكل ذلك لكي يعطي للمعمرين طابعا نفسيا لا يحسون فيه بالغربة عن وطنهم فرنسا . وبالمقابل أزيحت القيم الوطنية العربية الإسلامية من الساحة، وطمست معالمها من على واجهات المحلات التجارية، وصارت العامية منتشرة في الكتابة، وإذا ما وجدت العربية فهي بخط رديء لا يكاد يقرأ، وتزاحمها الفرنسية بخط جميل غليظ يتشرف نظر القارئ ويبعده عن قراءة العربية .

إن حياة اللغة هو الاستعمال، ولقد تفطن هؤلاء الفرنسيون إلى هذا العنصر منذ بداية الاحتلال، ولهذا عمدوا إلى تغيير الحرف العربي بالحرف اللاتيني الفرنسي فغيروا أسماء الشوارع واللافتات والجداريات في كل المدن التي استوطنوها، بل إن أسماء عربية حرفت مثل : دراع الريح صارت دراية (DRARIA) و محل الماء معالمة (MAALMA)، الجزائر (ALGER) ... وقس على ذلك فهذا قليل من كثير .

ومن بين الوسائل المستعملة للفرنسة في الجزائر نذكر : الصحافة، المطابع، المكتبات، المتاحف، المسارح والجمعيات والنوادي، معظم هذه المنشآت في البداية أنشئت للفرنسيين، ولكن كان لها تأثير مباشر على الجزائريين فيم بعد لاسيما فيما يتعلق بفرنسة الجزائر، وإحلال الفرنسية محل العربية، والقضاء على اللغة العربية في الاستعمال.

و خلاصة القول في هذا المقال أن الاحتلال الفرنسي كانت له استراتيجية واضحة المعالم فيما يخص فرنسة الجزائر، اتخذت أشكالا متعددة، و تغيرت ملامحها مع طول الزمان الذي بقيت فيه فرنسا في الجزائر، حاربت الحرف العربي، و لاحقته في الشارع و المدرسة و المسجد و الزاوية و الكتاب و الحقل وفي كل مكان .. و بالمقابل نجد أن الشعب الجزائري المغلوب على أمره كان ضحية هذا الاضطهاد الثقافي، و رغم ذلك استطاع أن يحافظ على هويته التي حاول الاستعمار مسخها و تشويهها و القضاء عليها .

إن جملة المظاهر المذكورة سابقا في سياسة الفرنسة، يحتاج كل مظهر منها إلى بحث مستقل، ولهذا يمكن توجيه الطلبة إلى البحث فيها لاسيما في مذكرات اللسانس، فهذا الموضوع له أهميته في تاريخ الأدب الجزائري الحديث.

هوامش البحث:

[1] ـ تركي رابح، **التعليم القومي و الشخصية الوطنية**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 3، 1981 ص : 104 .

[2] –أحد المفاوضين الجزائريين في اتفاقيات إيفيان، و التي تتشرف جامعة البليدة بحمل اسمه

[3] ـ سعد دحلب، **المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر** الجزائر : منشورات دحلب، ص : 143 .

[4] ـ د. محمد هاشم فالوقي، **تخطيط المناهج و بناؤها**، الإسكندرية،المكتب الجامعي الحديث،ط : 1997،ص : 144.

[5] ـ ينظر : عبد الوارث مبروك سعيد، **اللسان العربي**، ص : 182.

[6] ـ م .ن ، ص : 182–183.

[7] ـ Henri Massé , les etudes arabes en Algérie (1830 – 1930) , Revue Africaine, n M:74 , 1973 . ينظر : محمد يحياتن، الدراسات العربية في الجزائر (1830 ـ 1930) لهنري ماسي، ص : 77 .

[8] ـ سعد الله، **المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي (1775 ـ 1850)**، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977 ، ص : 25 .

[9] ـ محمد نسيب، **زوايا العلم والقرآن بالجزائر**، تقديم محمد الصالح صديق،الجزائر، دار الفكر، ص : 36 .

[10] ـ سعد الله، **التاريخ الثقافي** ، لبنان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1،2007، ج : 5، ص : 472 .

[11]نصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات و آفاق**، الجزائر، عالم المعرفة، ط2،2009، ص 43

[12] ـ عمار هلال، **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام**، ص : 12 .

[13] ـ عمار هلال، **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام**،، ص : 12 .

[14] ـ سعد الله، **آراء و أبحاث في تاريخ الجزائر**،ج:3،ص357.

[15] ـ عمار هلال، **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام**، ص : 290 .

[16] م . ن .

[17] سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج 5، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط، 1، ص، 140، و هو مكرر أيضا في التاريخ الثقافي الجزء الثامن .

[18] ينظر محمد يحياتن، دراسات حول اللغة العربية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2005، فقد ترجم لدراستين هامتين أرخت للدراسات العربية في فترة الاحتلال، هاتان الدراستان هما :

- ملاحظات حول تدريس اللغة العربية في الجزائر و قسنطينة و وهران

(1832*1979) لصاحبها أوقست كور، و هي منشورة في المجلة الإفريقية العدد 65،

1924، و صاحب هذه الدراسة هو نفسه من المستشرقين و قد نشر عددا لا يستهان به من المقالات و الكتب التي تتصل باللغة و الثقافة العربية و التاريخ بوجه عام .

- الدراسة الثانية هي : الدراسات العربية في الجزائر (1830 _1930) لهنري ماسي المنشورة في المجلة الإفريقية العدد 74، 1933 . و هنري ماسي، على غرار أوقست كور، مستشرق فرنسي، كان أستاذا بكلية الآداب بالجزائر، له عدة دراسات تتصل باللغة و الثقافة العربية .

[19] سعد الله، ص 141

[20] م . ن

[21] م .ن

[22] ـ صالح فركوس ، المكاتب العربية، ص : 282.

[23] ـ صالح فركوس، المكاتب العربية، ص : 283 .

[24] ـ م . ن، ص : 283 .

[25] ـ المرجع نفسه، ص288.

[26] ـ نصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، ص : 78 .

[*] أحد تلاميذ دوساسي .

[27] ـ ينظر : دوطوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم : إبراهيم صحراوي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2008، ص : 238 .

[28] ـ م . ن، ص : 239 .

[29] ـ م . ن، ص : 239 .

[30] خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون و المسألة اللغوية، ص 40

[31] ـ م . ن، ص : 300 .

[32] محمد الطاهر و علي، **التعليم التبشيري في الجزائر**، ص 68، أرشيف ما وراء البحار، اكس أنبروفانس، (AO M . Dossier 43 17)

[33] ـ **الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية, 15 سنة من النضال في خدمة اللغة العربية** ، الجزائر : الميزان للنشر و التوزيع،ص: 262.

[34] ـ يحي بوعزيز، **السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830 ـ 1954)** الجزائر : دار البصائر، ط .خ، 2009 ، ص : 96 .

[35] ـ يحي بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية**، ص : 78 .

[36] إبراهيم مياسي، **مقاربات في تاريخ الجزائر (1830 ـ 1962)** الجزائر : دار هومة، 2007 ،ص 157

[37] Bordier,Colonisation scientifique,p.190. إبراهيم مياسي، مقاربات في تاريخ الجزائ، ص 157،

[38] يحي بوعزيز، المرجع نفسه .

[39] ـ أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية الجزائر : دار هومة، 2007، ص : 148 .

[40] ـ أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي، ص : 151 .

[41] ـ جريدة البصائر، العدد : 31، السنة : 1، 17 أوت 1936، أحمد مريوش، م . ن، ص : 152 .

[42] ـ المرجع نفسه، ص : 153 .

[43] ـ جريدة البصائر، العدد : 31، السنة : 1، 17 أوت 1936 .

[44] ـ محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية**، المنظمة الخاصة،تقديم و تعريب محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر، 2007، ص : 50 .

[45] ـ سعيدي مزيان، **النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري في الجزائر (1867 ـ 1892)**،الجزائر، دار الشروق، ط1، 2009،ص: 98 .

[46] ـ م . ن، ص : 98 .

[47] ـ نقلا عن محمد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائري دراسة تاريخية تحليلية**، الجزائر، منشورات دحلب، 2009، ص : 224 . Les missions catholique françaises en 1900 et 1929 . Paris , ed amis des mission Aspes , s . d . p : 21 .

[48] ـ محمد الطاهر وعلي، م . س، ص : 224 .

[49] ـ م . ن، ص : 222 .

[50] محمد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائر**، ص 66 ـ 67

[51] محمد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائر**، ص 69

[52] ينظر الصور الملحقة .

[53] ـ صالح فركوس، **المكاتب العربية**، ص : 285 .

[54] ـ م . ن .

[55] Amrouche (fatima) , Histoire de ma vie , paris , maspéro , 1970 , p : 31 – 41 . 139 : ص ، ن . م

[56] AOM dossier 16h 114 / l'œuvre scolaire des pines blancs en kabylie p : 13 l , . 139 : ص ، ن . م

[57] Lesourd (paul) l'oeuvre civilisation des pères blancs, paris , glasset 1931 , pp : 35 –36 . 140 : ص ، ن . م

[58] Lesourd (paul) . p : 19 .

[59] عمر بن قينة، **الأدب الجزائري الحديث**، الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية، 2009، ص 60

[60] شارل روبير أجرون، الجزائريون المسلون و فرنسا 1871/ / 1919 نقله إلى العربية : م . حاج مسعود، ع . بلعربي، الجزائر : دار الرائد للكتاب، 2007 .، AOM dossier 16h 114، محمد وعلي، ص 192

[61] A . O . M . Bulletin officiel du G.G année 1887 . n°1046 loi du 30 octobre 1886 sur l'organisation de l'insaruction public . ينظر : محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر، ص : 182 ـ 183

[62] A . O . M . Bulletin officiel du G.G année n°1281 Décret du 18 octobre 1892 relatif à l' enseignement primoire public et privé des indégènes d'Algérie .

[63] المكتب العربي هيئة صغيرة أنشأها الفرنسيون في كل المدن و القرى الجزائرية، و كان يرأسها فرنسي برتبة عقيد في الغالب، و تضم مساعدا له، و مترجما و شاوشا، و كانت عبارة عن خلية تجسس عن الأهالي و أداة فرقة بينهم. لاشك أنّ المستعمر قد وجد نفسه يجهل لغة المجتمع الجزائري و عقيدته و تقاليده و طبيعة بلاده الجغرافية، و نتيجة لفوضى الاحتلال العارمة التي اكتسحت البلاد، حاول المحتل إيجاد مؤسسة تكون همزة وصل بين قواته الغازية والجزائريين فأحدث "الدوق دوروفيقو Le duc de Rovigo الحاكم العام للجزائر عام 1833م فرعا في مكتبه سماه:"**المكتب العربي**" الذي صار يطلق عليه فيما بعد "مصلحة الشؤون العربية " التي أسندت إدارتها إلى النقيب "لامورسيار Lamorcière"(1833–1834م) لأنّه كان يحسن التكلم باللغة العربية. ولقد تحدث **صالح فركوس** عن هذه المكاتب العربية و كذلك **ناصر الدين سعيدوني**و قام بتعريفها و تحديد أهدافها و نشأتها، ومما توصل إليه "أنّ تلك الإدارة لم تكن لتهتم بشؤون الأهالي بقدر ما كانت تعمل على إخضاعهم وسيط نفوذ فرنسا على كامل أنحاء القطر"

[64] ـ صالح فركوس، **المكاتب العربية**، ص251 .

[65] ـ جمع طالب (بفتح اللام) يطلق على كل من حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب بنصه ورسمه وأحكامه، وتعهده بالتلاوة على الدوام، أو بالتدريس في الكتاتيب القرآنية أو غيرها من الأمكنة التي فتحت أبوابها للتدريس إضافة إلى تأدية التكاليف الاجتماعية المسندة إليه، وقد يكون الطالب (الشيخ) ملما يقدر محدود من الأحكام الفقهية على المذهب المالكي أو على المذهب الحنفي أو الإباضي بطريقة حفظ المتون أو المطالعة الحرة أو ملازمة مجالس المشايخ والاطلاع على الشروح والحواشي، ومن أشهر أسماء حافظ كتاب الله : الطالب، الفقيه، الشيخ، الدرار ... ومكانة الطالب الأدبية عموما تفوق مكانة أي موظف في محيطه مما جعلها تؤثر في نفسية المواطن لدرجة التبرك بزيارته والتماس الدعاء منه وارتضاؤه، فكلامه مسموع وأمره مطاع، وللطالب مهام كثيرة اجتماعية ودينية زيادة على مهنة التدريس . ينظر : امحمد الأزرق، الكتاتيب القرآنية في الجزائر ودورها في المحافظة على وحدة الأمة وأصالتها . (الجزائر : دار الغرب للنشر والتوزيع 2002) ص : 89 .

[66] ـ المرجع نفسه، ص : 271 .

[67]Burdeau,L Algerie en 1892, Paris,1892,p. 202 – 205

[68] ـ شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 ـ 1919**، ج : 2، ص : 446 .

[69] ـ شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا** ، ص : 433 .

[70] ـ م . ن، ص : 446 .

[71] ـ م . ن، ص : 446 .

[72] ـ م . ن، ص : 448 .

[73] ـ شارل روبير أجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا** ، ص : 448 .

[74] ـ ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، ص : 83 ـ 84 . نقلا عن :

Mtouggi (Lhaoussine) , vue générale de l histoire bèrbère , Alger , des givres , s , d , p : 7ç_ /

[75] ـ Carette (E) . Recherche sur l origine des prinsipales tribus de l'Algérie /

[76] ـ ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، ص : 82 .

[77] ـ ينظر عن هذه الشخصية : بوعزة، مجلة التاريخ، ص :

[78] ـ الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د . ط، الجزائر، 1982، ج : 2، ص : 63 ـ 64 .

[79] ـ الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، ص : 64 ـ 65 .

[80] ـ محمد بن سمينة، النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر، مؤثراتها ـ بداياتها ـ مراحلها، الجزائر : مطبعة الكاهنة، 2003، ص : 65 ـ 66 .

[81] ـ م . ن، ص : 66 ـ 67 .

[82] ـ سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج : 1 (الجزائر، دار البصائر، ط : 6، 2009م) ص : 66 .

[83] ـ م . ن، ص : 70 .

[84] ـ سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ص : 70، ويمكن أن تقاس مع ما يقوم به الصهاينة تحت المسجد الأقصى وما حوله، فهم يبحثون عن الهيكل المزعوم بعد هدم المعالم التاريخية والدين الإسلامي، ويغيرون المعالم الإسلامية الواضحة، وينتشرون أفقيا على الأراضي الفلسطينية بعد تغيير أسماء الشوارع والأمكنة .

[85] ـ م . ن، ص : 70 .